معنى الموت والعدم في « ثرثرة فوق النيل »

بقلم دريد يحيى الخواجة

مع المجهول والموت والليل والظلام ، تعيش ثرثرة نجيب محفوظ فوق النيل ، ومع العدم تتشوف تجربة الانسان على رعب . وتحس احساسا مختنقا يجتاح جوانبك حين تحاول « الثرثرة » في بعض جوانبها ، فتح مغاليق مجهولك وتتطلع الى ما وراء الاشياء وتتعمقها ، حيث تبدأ من لا شيء لتصل الى لا شيء .

لا شيء يستحق الاهتمام ، و « العدم » هو المحور الذي يهيمن على وجودنا ، أن كنا حقا نحس به ، وما الحياة الا خرافة أو نكتة سمجة يعيشها الانسان من خلال شاشة رجراجة ، تخنقه ، ترميه جثة في نهاية الطريق . وتنتهي الحياة كأنها لم تكن شيئا .. كأن لم يعش انسان بلحمه ودمه !.. انسان عذبه السؤال « هل حقا سيموت يوما ما ؟ » . العوامة هي عالم منشود لثرثرة ، مجال لافكار تدور وتتحرك ، أشخاصها اندحروا في رقعة صغيرة ، استسلموا للحشيش يمتصونه مع مهرجان الجمر المتوهج ، جميع هؤلاء الساخرين « الحشاشين » : « تكوينات ذرية فقدوا الشكل واللون ، اختفوا تماما ولم يعد يوجد منهم شيء يرى بالعين المجردة ، ليس ثمة هناك الا أصوات » .. أصوات تتحدث خلال رؤية مسطولة حائلة عن المصير والموت والبدء وحنين الحب. ومن عيني أنيس الثقيلتين ـ الشخصية الهامة في الرواية ـ يتفجر العدم عندما تلامسان أي شيء . فينعدم الزمن بتاريخه وتبدأ الاجيال والاعوام والشهور والايام تمور بجانب الزمن الكوني ببلايين سنيناته الضوئية .. ترتجف ، وتصبح على شكل أفكار فوسفورية متلامحة ، ينضح بها ذهنه المسطول عبر أشجار الجازورينا والياسمين والاكاسيا والحمام الابيض والموت .. والموت . وفي المساء حيث الحزن « يقتحم عليك المأوى بلا دعوة » يرنو أنيس بعينين ناعستين الى المغيب متذوقا بمودة رائحة ظلها النسمة بعد ان يحسو من الفنجال السادة الممزوج بالسحر ويلعق بلسانه الرواسب ، ويطير مع الاشعة الذاهبة فتمثل له المساء بشرا عابثا قد عمر الملايين من السنين وراح يعرض بامرأة ، كلما هجرها محب ارتمت بأحضان اخر » ، وقال : « ان ذلك سلوك يمكن أن تفسر به أوجه القمر المتتابعة من المحاق الى البدر » .

أنس زكي هذا موظف في « معتقل الارشيف . متحف الحشرات » يضيق ذرعا بالصراصير والعفن والعنكبوت والنمل والنوافذ المغلقة ، وحين يقدم لمديره العام ـ المملوك في نظره والذي تشبه صلعته قاربا مقلوبا ـ حين يقدم له بيانا عن حركة الوارد ، يكتشفان معا ان الورقة بيضاء ، لان أنيسا كتبها والقلم خال من الحبر ، فيسأله المدير في حيرة : « خبرني يا سيد أنيس كيف أمكن أن يحدث ذلك ؟ » فاذا به يغيب في السؤال أو يغيب السؤال فيه ، وتكبر أمامه « كيف » وتتسع وتتسع حتى تشمل أزمته هو أزمة الوجود ، فيتساءل « أجل كيف . كيف دبت الحياة لاول مرة في طحالب فجوات الصخور بأعماق المحيط » . وتنهال عليه نبرات الوعيد الحادة مشفعة بحركات التهديد من مديره العام : « عيناك تنظران الى الداخل لا الى الخارج كبقية خلق الله .. » .. الى الداخل ، حيث يذيبه السؤال : « الى أين؟ » . ان الانسان المعاصر يعيش أزمة تتجلى في كل شيء ، تهدده لحظة الصفر ، وتأخذه الحركة الدائرية « التي تتسلى بالعبث » . انه ـ أي أنيس ـ ما يزال ببساطة يجهل كل شيء عن نفسه ، وانه ليس ثمة معنى لاي شيء . انه يعيش في الحياة التي تتصادم أمورها في أعماقه تصادما مريعا ، فتجعله نزقا ، راعبا ـ مرتعبا يبحث عن شيء في لا شيء « فيا أي شيء أفعل شيئا فقد طحننا اللاشيء » ويخترقه خوفه من الموت قبل الموت ، ويتساءل آهو خوف الموت أم الحياة ؟ الراحة لا معنى لها ، ولم يبدع الانسان ما هو أصدق من المهزلة » . « الى أين » هذه التي يمكن وضعها أمام هذه المباني السابقة وأفكار اخرى متعددة حول الوجود الانساني ، تضيع من رأسه ، فيتلهف رائضا وراءها يريد أن يمسك بالخيط ، ويتألم لها عندما تضيع ، وتختفي عبر ماضيه حيث غيب في التراب أعز ما يملكه : زوجته ، وابنته ، وحيث فاته النجاح في الشهادة والحصول عليها ولم يفته في العلم والاحاطة به ، حين التحق بكلية الطب والحقوق ، والعلوم . لقد أخفق في حياته ، فالتحق موظفا يعايش التفاهة ، ويرصد الوارد والصادر مع أنه « ثمة آلاف من الشهب تتناثر مع الكواكب لتحترق وتبدد منهالة على جو الارض دون ان تمر بالارشيف او تسجل في دفتر الوارد . اما الالم فقد خص به القلب وحده » .

لقد فقد انيس ايمانه بما يعوز الانسان حتى « يسوغ » صيرورته ، حتى يستمر .. فقد ايمانه بالناس ، وبالكون ، وبالدين ، وبالفلسفة ، ويخشى كل شيء ، ويضيق بكل شيء كما يضيق الضيق بالضيق ، ويدب العدم حوله دبا ، يدور ، كما يدور كل شيء : الشمس والقمر والافلاك ويؤدي الى الموت « لا شيء يسمع الا دبيب الموت » .. والجوزة تدور « لان كل شيء يدور ولو كانت الافلاك تسير في خط مستقيم لتغير نظام الغرزة » . ومن الدورة يتولد التعب من الدوار ومنه يهجم الموت او ـ على الاقل ـ التفكير بالموت ، وما هذه المظاهر الانسانية التي تتلامح بارقة في الحركة والنبض الا اندفاعات تلقائية ، آلية لا تعني شيئا غير (الشكل) و (الظل) . فهو غريب عن الناس ، غريب عن أصحابه في العوامة ، ولا يجمعه معهم الا « الموت » ، وهو « عندما يدقق النظر في وجوههم تنكشف له عن ملامح جديدة كأنها وجوه غريبة ، ويشعر أنه غريب وسط غرباء » ، وغربته عن نفسه تجعله يستيقظ « على منظر ساقه المطروحة لصق الصينية طويلة بارزة العظام ، باهتة اللون في الضوء الازرق ، كثيفة الشعر ، كبيرة الاصابع ، مقوسة الاظافر من طول اهمالها بلا قص ، فكاد ينكرها ، وعجب لعضو من جسده كيف يبدو كالغريب » . والكون حول انيس حين ينظر الى (خلفية) بعضه عبر نافذة العوامة ، يمثل رحلة الفضاء عبر رؤيا مسطولة للاشياء ، تتشابك مع التاريخ في توتر رائع « فتبدو الكلمات حلية جميلة من الشعر » ، تشدك اليها شدا عند القراءة الاولى للرواية ، وتتبعثر أفكارا ورؤى انسانية مأزومة في حالة التعمق الثانية ، لقد برع نجيب محفوظ حقا ، في استخدام التاريخ ونقله الينا على عمق ، نقلا محببا موحيا يخدم الفكرة والشخصية . ويصبغ الكون من شجرة ، وحيوان ، وطير ، وانسان ، صبغة تتولد فيها المعاني وتشعرك بأن كل شيء مكرور . والانسان حين يصل الى القمر ، فسوف يخرج من لا شيء الى لا شيء ..

فتارة تدق حوافر المغول اسماعنا ، تدق حدود مصر . وتدهمنا في اشتياق الحسناء كليوباطرة بارزة في تبلج الفجر من بساطها المنطوي ممتلئة ثقة أمام يوليوس قيصر . ويخيم علينا الخيام بعد أن أفلح في الفرار من الموت ، ويتبدى لنا أنيس وقد وقع في أسر الهكسوس ، يبكيه

فرعون ، كما نراه في صحبة الرشيد ، وهذه ليلى زيدان تشخص لنا راعية في صحراء سيناء في عهد خوفو لبثتها حية فقضت عليها ، وتارة أخرى يهتف أنيس « برفاق العدم » حين يحتدمون متمسكين بعبثهم وأباجيتهم : أيها الاوغاد أنتم السبب في سقوط الحضارة الرومانية ! .

أن حركة التاريخ في « العوامة » توحي دائما بالعدم ، مع أن أحداث الرواية تسير في زمن متلاحق نسبيا ، الا أن الوجود الزماني للشخوص يشكل حيزا واسعا من « الزمان » ، والشخوص الانسانية تلك ، تستقطب الوجود الانساني كله ، متحدية ، عنيفة في مواجهة الوجود الكوني . لكن هذه المواجهة العنيدة المتبدية باشكال مختلفة في شخصيات الرواية ، تمتزج امتزاجا خالصا بفكرة العدم ، وتجعل منها — أي المواجهة — لونا من ألوان العبث والعذاب . وينضح ذلك من تلك الرؤية الفيزيقية ، حيث ينشغل أنيس بالكون فيتخيل(الراصد) من فوق وهو يشهد « ثمة تجمعات دقيقة تنفث غبارا مما يكثر في الغلاف الجوي للكواكب وتصدر عنها اصوات مبهمة .. وهذه التجمعات الدقيقة تختفي لتعود دون هدف واضح » .

والقمر هو « العدم الاكبر » أن صحت التسمية ، الذي يأخذ بلب أنيس ، ويرشقه في دوامة « اللغز » في الوجود والازل حين يطير مع أشعته الذهبية مشرقا و « يسقط » معه محتضرا . لقد فقد القمر مدلوله الذي كان له في القرية ، وأنيس يذكر بحدة كيف كان مرهقا في الغارات السود « وها هو البارع يتواثب لغزوة جديدة وهو كجميع الغزاة يتحلى بقسوة حادة كالدرع » . ان حالة الانشغال بالقمر نبعت من الخوف من الموت أو من الخوف من الحياة ؛ والقمر فيما يبدو — في قبة المجهول ، يبحث عنه الانسان وهو عابث في الخسارة وتلألؤه مندرج في زحف الدورة التي تبقى بلا تفسير « هاكم الموت يزحف ويمد قبضته الينا ، ثم مأدبة مدت للفناء » .

لن يكون من طريق سوى العدم ، في العلم ، وفي الدين وفي الحب . كل موهوم ، والعدم هو الصيرورة الواضحة الاولى ، التي تلفنا وتعصرنا وتجعلنا نتصرف على نحو أو آخر ، حتى « الحركة » أي حركة يتساءل عنها أنيس ، ويجد « العدمية » تكمن في ذبذبتها، وحين يطل على التاريخ من خلال رؤيته المسطولة على رفاق الموت : أصحابه ، تقتحم التساؤلات رأسه وينفسح خياله دوامة تدور وتدور ، انه يفكر بطريقة عجيبة في العدم . أبدع نجيب محفوظ في مزج فكرته مع شخصيات التاريخ المستحضرة لديه ، والمتميزة في حالة من حالات الاسف والحرقة . فيطعم فضولنا بنيران حوادث خاطفة ، تمايلت حارة ، دسمة ، فاتنة على لسان أنيس لتخلط العبرة — أن كان ثمة عبرة خالصة — بالسخرية ازاء التجارب الانسانية في الجنون،والحب، والطب ، والهبوط الاول ، وادم وحواء . وخير مثال على ما أوردت حين يتساءل المسطول العدمي هذا : « هل اجتمع هؤلاء الاصدقاء — كما يجتمعون الليلة — بثياب مختلفة في العصر الروماني ؟ وهل شهدوا حريق روما ؟ ولماذا انفصل القمر عن الارض جاذبا وراءه الجبال ؟ ومن من رجال الثورة الفرنسية الذي قتل في الحمام بيد امرأة جميلة ؟ وما عدد الذين ماتوا من معاصريه بسبب الامساك المزمن ؟ ومتى تشاجر ادم — بعد الهبوط من الجنة — مع حواء لاول مرة ؟ وهل فات حواء أن تحمله مسئولية المأساة التي صنعتها بيدها ؟ » . حواء صنعت مأساة ، الهروب ، من وحوش الموت والقلق في هذا العصر الغريب على الارض ، وكل عصر . والخيام الذي كان مدرسة أمسى فندقا للملذات، وقد قال لانيس مرة : « انه لو كان امتد به العمر الى أيامنا لاشترك في أحد النوادي الرياضية » . في هذه الجملة السابقة الى جانب جمل أخرى سأذكرها ، نتعرف الى توق ينز بالدم ينبت أحيانا في أعماق البطل العدمي لان يحصل على شيء أقوى من العدم ذاته ، ولعل هذا ما أشارت اليه صراحة سمارة بهجت حين قالت له : « لا تسيء بي الظن ، اني أحبكم حقا وأرغب في صداقتكم ، وفضلا عن هذا وذاك فاني أؤمن بانه يوجد بطل كامن في كل فرد » . ولكن هذا التوق نحو الخلاص ، يبدو على شكل شعاع ضئيل أحيانا في محاولة حبه لسمارة. والصورة الاخرى عند أبطال العوامة في البحث عن الحقيقة ، والانطلاق نحو مواقع جديدة يضعون عليها أقدامهم — صورة شاذة عبثية، ولكننا مع ذلك لا نملك غيرها بعد أن لحق العجز آخر الفلسفات الانسانية في فض كنهها وغدت فلسفة اليوم كامرأة ساقطة . فمن خلال العبث يودون الوصول الى « المعنى » ، فهو عبث ملتزم ، جاد يرفض أشياء كثيرة ما دامت « الفناطس بحالة جيدة والحبال والسلاسل متينة وعم عبده ساهرا والجوزة عامرة ، فلا هم لنا .. » هم آمنون اذن ، ولم لا يكونون كذلك ، وعم عبده هو الحبال والفناطيس والزرع والطعام والكيف والمرأة والاذان ؟! . وعم عبده هذا شخصية مهمة جدا تخدم « فكرتي » عما بحثت عنه في عدمية الرواية ، فهو (الفكرة المطلقة) التي يوافقون عليها جميعا ، حيث يتجسد فيها معنى « الخلود » مقابل الموت ، وقد أضفى عليها نجيب محفوظ ملامح ايمائية رائعة تنبض بالقوة والاعجاب، حيث يشعرنا بطريق غير مباشر ، ما يحس به أهل العوامة وخاصة أنيس ، من (الطرب) لرؤيته ، و (تنبه) يصل الى درجة (الحسد) الحقيقي للرجل الذي « لا يمرض ولا يتأثر بالجو ولا يعرف عمره كما يخيل (لانيس) انه لا يموت » . لكل شيء نهاية و « حلت اللعنة التي تجعل لكل شيء نهاية » ولكن عم عبده « نسل الديناصور » يظل ، أبدا ، بدء النهاية .. انه الانسان الذي تجب محادثته قبل وبعد ذهاب الصحاب رغم أن المعاشرة بينهما لم تجاوز الشهر ، ونحن نعرف أنيسا الصامت الذاهل ، ولكن عم عبده يستقطب تفكيره واحساساته ، ويبدو الانسان الوحيد المحبب لديه (فعلا) ، انه عالم « يشع كونه جاذبية لا تقاوم » و « رمز حقيقي للمقاومة حيال الموت ، ورأى كل شيء .. حتى العفاريت ؟! » . ان مجرد ظهور عم عبده حين تغيير الجوزة ، وخروجه ، كان يشكل وحده نغما عجيبا خاصا ، ونفحا يفتق فيهم الاحساس بتوقهم المطلق نحو هذا البناء المتكامل الذي يبدو أنه لن يموت ، فيتراشقون كلماتهم على انبهار معنية بهذا الخفير

صدر حديثا

حكايا لليل

مجموعة قصص

بقلم

اديب نحوي

الكتاب القصصي الثالث ، بعد « حتى يبقى العشب اخضر » و « جومبي » ، لقصاص اصيل هو نسيج وحده في كتاب القصة العربية المعاصرة ، بفنه الحي ونزعته الانسانية وروحه الالتزامية الصادقة

منشورات دار الاداب ٢٥٠ ق.ل

المحير ، الذي يحفظ « دنياهم » العوامة . ان العالم في حاجة الى رجل في عملاقيته لتستقر سياسته .. ويقول رجب اله الجنس مدركا تلك الحقيقة : « من حسن الحظ انه مثال الطاعة والا فلو شاء لفرقنا جميعا .. » . ان معنى الموت يجبه أنيس ، ويقف أمامه كسؤال الاسفنكس الخالد في قصة أوديب المعروفة ، وعم عبده يمثل الوجه الاخر من الصورة ، فهو ببساطة ـ فقد كل شيء ونسي كل شيء ، ويبدو « الاطمئنان » في هيكله الذي يناطح رأس العوامة أولا، وتلقائيته الوجودية النفسية في الحياة ثانيا ، انه مطمئن لوجوده لانه لا يحس بالوحدة ، أما مشكلة الموت فانها ظل أنيس الذي يؤرقه في انسطاله وافاقته ، والشعور القاسي العنف في ادراكه بانه سيموت وحيدا كما يعيش وحيدا ، ولا يربطه باصحابه الا الموت ، وان الاف العوالم تنطفىء فيه ، والعدم حتمية شاملة ما كان الانسان كائنا من كان أن يفلت منها. وفي الفصل السابع عشر ، نجد أن نوعا من (المطاردة) .. مطاردة العجوز تغلف احساس أنيس اللاواعي ، ويقول له مداعبا « تطاردني يا عجوز » . ان أنيسا يخاف من الناس خوفه من اخفاقه الذي يلاحقه ابدا في تفكيره ، وتاملاته ، وارشيفه ، لذلك نراه يسال عم عبده سؤالا يفيض مرارة ، وضياعا ، بطريقة جد موحية ، حيث جعل نجيب محفوظ صيغة السؤال تواجه عم عبده في « ماذا تصنع لو طردتك من العوامة ؟ » فيجيبه وهو يضحك « جميع الناس يحبون عم عبده ». ان « طردتك » هذه تتعلق علاقة غير مباشرة بـ « طرده » هو من الارشيف ، والعذاب القاسي الذي يشب نظي في احشائه من جريرة ذلك انه يخاف من حياته خوفه من موته في هذه اللحظة ، ولا يدري ماذا يعمل ببطالته ولكن « جميع الناس يحبون عم عبده » وهل الناس يفعلون ذلك أو فعلوا الشيء نفسه الى « أنيس ؟! » فيساله « أتحب الدنيا يا عجوز ؟ » وبالطبع تكون الاجابة مناقضة تماما ، لما يحس ويفكر به أنيس : « احب كل ما خلق الرحمن » ، وأنيس أبغض كل ما خلق الرحمن ، لانه فقد كل ما يصله بالرحمن ، لانه فقد حتى حبه لنفسه ، انه في غربة عن ذاته ، ومجتمعه ، وكونه . وان « طول عمر الشجرة ـ وحده ـ يكفي لاقناع من لا يريد أن يقتنع بان النبات كائن لا عقل له » ولا فائدة من أن يعمر الانسان كسلحفاة ، ولا جدوى من اطالة عمره ، فلن يكون الا كالملك في مسرحية ايونسكو «الملك المحتضر»، الذي تحدى الموت بكل شيء فلم ينفعه شيء ـ : « سيصبح الملك صفحة في كتاب مؤلف من عشرة الاف صفحة ، وسيوضع هذا الكتاب في مكتبة تشتمل على مليون كتاب ، وهذه المكتبة واحدة بين مليون مكتبة». وحتى في الفصل الخامس عشر ، حين قامت « الجماعة » برحلة السيارة المشؤومة وحصلت جريمة القتل ، وحاول رجب قتل أنيس ، كان يبدو لنا أن كل شيء في انتهاء ، وأن الذين جمعهم الموت والعدم كاد أن يشتت شملهم الموت أيضا .. كل شيء كان يبدو في انتهاء ، غير واحد ! ... « فالكيف » نفد من السوق ، ومعرس الجوزة داهمه الخراب ، والخيال مات ولم يبق في الراس الا ضغط الدم ، وسمارة بهجت لم تعد تصلح لشيء رغم جديتها صائرة « الى موت محقق » « موت يدركك وانت حي » ، وعلامة الاستفهام تكبر وتنتفخ ، تدوم مدوية في أعماق أنيس وهو بدوره ينتظر الموت الذي سيظهر ليبتلع العوامة ... غير واحد يغلق خلفه أقزام يركعون ، يؤذن ويؤم الناس في الصلاة .. عملاق وحده راسخ كالطود . ان شخصية عم عبده تذكرنا بشخصية « وات » الى حد ما في رواية « بيكيت » المعنونة باسمه ، فوات هذا الرجل عجوز مسن مثل عجوزنا في الرواية يخدم رجلا غريب الاطوار هو « المستر نوت » ولا مجال هنا للمقارنة الفعلية ، فنجيب محفوظ متاثر تاثرا واضحا في الثرثرة بثورة اللامعقول، مسايرا بذلك التطور الحديث في الرواية الاوروبية والادب الاوروبي . ويمس أوتار العبث في قول البير كامو في « الحرية العبثية ـ : « أنا لا أعرف اذا كان لهذا العالم معنى ولكني أعرف أني لا أعرف هذا المعنى ، وانه من المستحيل على هذه اللحظة أن أعرف هذا المعنى . ماذا يهمني من تفسير خارج عن ظرفي ؟ أنا لا أستطيع أن أفهم الا بالالفاظ البشرية».

ان اختيار نجيب محفوظ (للعوامة) كمكان ، لمجاري الافكار « التجريدية » ، تعطينا انطباعا خاصا لافكار جديدة على أرض جديدة ، لكن الاشياء والصور التي يسكب فيها الكاتب أفكاره ، من خلال ما يتجسد في « العبارة الرؤيوية » توسع من دائرة الضوء في المصادر الادبية التي هي ـ كما قال أنيك ـ أكثر سلامة من تلك التي تتعلق « بمصادر الالهام في حياة الكاتب » . ان مسرح العبث قد ألقى على بساط البحث كثيرا من الاسئلة التي افترضها نجيب محفوظ ، حول العدم والموت ، بل ان العنصر الجوهري الاول في هذا المسرح وهو الحضور أو شرط الحضور ـ كما يطلق عليه أصحابه ـ دون الحركة أو الاغراق في تغيير الحركة في المكان والزمان ، يتوفر توفرا مشابها في الرواية ، فالافكار هي التي تتحرك ، لا الاشخاص . بل ان افكارا رددها « بيكيت » و « ايونسكو » و « جان جوني » مثل : « اننا لا بد هالكون ، من سينقذنا ، نحن لا شيء ، ونسير نحو لا شيء لننتهي الى لا شيء في عالم غامض ثقيل تحف به قوى الموت والعدم » ... هذه الافكار موجودة في أكثر من مكان في الثرثرة كما عرضتها سابقا . ان شخصيات « بيكيت » معزولة معنويا عن الحياة ، وكذلك شخصيات نجيب محفوظ في الثرثرة ، ان الحديث الفكري الذي يتردد في أعمال الاول مشابه ـ ديالكتيكيا ـ لعمل نجيب محفوظ الادبي ، في اصطباغ هذا الحديث بهذا المضمون الحزين المأساوي ، الذي يبدو لنا صدى كيان الانسان في هوة سحيقة لا نهاية لها .

والسؤال الذي يثور بنا هو : هل شخصيات الرواية « مقنعة » وبخاصة شخصية « أنيس » ؟ . الرواية كاملة ، تولدت تولدا غير عربي الى حد ما ، وهي عبارة عن أفكار دومت في أعماق نجيب محفوظ بعد اطلاعه على أدب العبث ، فكانت تلك الشخصيات التي تثرثر فعلا ، تدخل حال دخول العوامة ، في مناقشات مبتسرة ، تعطيها شيئا من « الزخم » الروائي حوادث جانبية تثير الفضول أكثر منها ترضي العقل ويتبدى ذلك في شخصية سمارة « السرية » حين تسبق الحضور، وسناء حين تروض خصلة من شعرها مقهورة ، وليلى زيدان العانس والخراب يزحف على عينيها ، ثم سنية كامل وهي تخرج ضحكاتها المكبوتة من الحجرة المغلقة .. وهل هذه الشخصيات الافكار تمثل المجتمع العربي في مصر ، فعلا ؟ أم أنها أشخاص أو أشباح أشخاص « مستقبلية » تراود مخيلة الكاتب ، أم أنها جماعة غريبة لا تمثل الا نفسها ؟ الجواب ان كل الدلائل تدل على أن أبطال الرواية ما عدا أنيسا ـ وعم عبده عاديون بل جد عاديين وهم يثرثرون على نحو أو اخر دون أن ندرك ، أو نأخذ فكرة سليمة عن شخصياتهم ، أو الدوافع التي تملي عليهم هذا الكلام أو ذاك ، بل أن الحوار يعاد يتشابك ويتشابك، حتى ما نحس بعده من يتكلم فعلا ... الطالبة الجامعية في المجتمع المصري المتوثب تحولت الى عاهرة ، والفتاة المثقفة غدت شيئا منحطا تتناقلها الايدي ، كدمية ، والزوجة ـ أية زوجة ـ مدمنة جنسيا تمارس تعدد الازواج لكنها تظل « امرأة حنان » أما رؤوما حتى في « عشقها » ، العالم يعيش على كف عفريت ، ولا بد من رأس الحوت أن يظهر . ان هذه الشخصيات التي عرفنا أسماءها تتزدد وتتردد في كل صفحة ولم نتعرف على أعماقها ، لم تكن الا أفكارا عادية مجردة، صيغت في بوتقة الجوزة العامرة ، وأنا أعرف حقيقة أن المجتمع المصري بخاصة والعربي بعامة ليس على هذه الصورة . وكل ما يصلنا يدل دلالة أكيدة على زخور الحركة المثقفة وانفتاحها في مصر ، وتطلعها الى (منائر) جديدة من الاخلاقية المجتمعية والتقييس الجديد لجميع ما يستجد في بناءات المجتمع المتحول ، أم أن مجتمع الحشاشين سيظل وصمة القطر المصري والتجربة الحية التي يحيا بها كل « انفجار » ادبي يريد لنفسه أن يكون (خالدا) !؟ فهل يمكن للاديب العربي بالذات أن يطلق مرحلة الرؤيا الاجتماعية البحتة الى الابد في مرحلة بحثه الفلسفي دون أن نشتم روائح مميزة ؟ .. أن نعايش تطلعات المصري الجديد ؟ ان المثقف في ـ القاهرة الجديدة ـ قد حاول الدفاع عن « قضية » ، أفلا يمكن له الان أن يدافع عن (قضية أخرى) في

الثرثرة ؟! أنا لا أنكر على محفوظ الروائي الكبير تطوره ابدا ، بل اني انكر استخدامه هذا التطور في اعطاء مثل هذه الصورة المشوهة عن المثقف المصري الحشاش بكل قطاعاته ! .

على أننا لو افترضنا وجود هذه الشخصيات باوضاعها ما عدا انيسا وعم عبده ، فهي ليست مقنعة بما تحمل من ابعاد فكرية ، ونفسية ، وثقافية كما بدت في الرواية ، بمعنى اخر ان حال تلك الشخصيات غير طبيعي ، ولكن سياق الرواية في التادية للتعرف عليها من الداخل ، لم يكن مقنعا بحيث نرتضي اوضاعهم في العوامة..! انهم عاديون في حديثهم ، متشابهون في محور افكارهم واستجاباتهم ، وغير عاديين في أوضاعهم .. أوضاع كل منهم على حدة ، ومن هنا نشا التناقض السلبي في الخط الروائي المرسوم لها ، فبدت لنا مهزوزة ، متنافرة ، ونجيب محفوظ حين يعرفنا بهم ، يلجا الى طريقة تقريرية وصفية بحتة ، أسلوب صحفي في التعريف : هذا فلان ، له وما عليه ، وتلك فلانة ، لها وما عليها .. وقد اعاد محفوظ هذا التعريف اكثر من مرة حين دخول أي زائر جديد ، لكانه ـ في داخله ـ لم يثق بعد باقتناع القارىء بهم . ومتى ندرك ان « الالة » التي مجها الغرب وجعلت من عدد المصابين الذين يدخلون الى المصحات ، قدر عدد الجامعيين الذين يدخلون الجامعات ، هذه الالة ما زلنا نحتاج نحن اليها ، اننا نفقدها . والمرحلة المتدهورة التي يعيشها الغرب ، لا نعيشها نحن بحال ! ان التراث الحضاري العربي ، وأفكاره متميزة تميزا عجيبا عن أي فكر اخر ، وهو عندما ياخذ ، نراه كانه يعطي ، انه موهبة ما زالت تبعث بشرارتها الاولى « الاصيلة » رغم ما اصابها من نكبات . كان يمكن لهذه الشخصيات ان تفكر مرحليا بما يدور حولها من ثقافات ! انما ان تعيش على هذه الطريقة من العدمية دون تبرير مقنع وسط شعب متاجج ، مثقفوه اكثر تاججا وحماسا ، وصيرورة نحو ما هو افضل ، دون أسباب عصابية أو دواع حياتية خاصة لم تظهر لنا بوضوح فنيا ونفسيا ، فهذا ما لم نعثر عليه في الاعمال الادبية الاصيلة وفي أعمال نجيب محفوظ نفسها. ان الشخصيات الروائية من سناء حتى رجب يمكن أن نجد لها شخوصا ممسوخة لافكار تمت اليها بصلة قريبة او بعيدة ، أو شخوصا تتكلم بافكار حقيقية لاعمال اللامعقول ، ولكن هل هذا يعنينا في شيء ؟ ان كاتبا مثل « بيكيت » نكاد نجد أكثر شخوصه موجودة قلبا وقالبا في مسرحية أخرى له ، أو لغيره ، وكذلك الامر بالنسبة الى « يوجين ايونسكو » فان الملك ببرنجه الاول الذي يعيش تجربة موته وينتظره عارفا به في المسرحية المسماة « الملك المحتضر » هو بطل ايونسكو المشهور الذي نراه في كثير من مسرحياته في « الكركدن » مثلا وفي «سيارة الهواء» و « القاتل المجاني » ، اذن لا يعنينا ذلك من وجهة النظر هذه ، لان فكرة العدمية هي الاساس والمحور الذي يدور حوله أي عمل فني لامعقول ، وما يمكن قوله بالنسبة الى الثرثرة فيما يتعلق بهذا التشابه، بين عمل فني معين وعمل فني اخر ، هو أن افكارا عدمية ، البسها نجيب محفوظ ـ مختصرة ـ لباس الشخوص الملتفة حول الجوزة ، والجمر ، وصب عمله الروائي ـ مبدعا ـ على أنيس ، الذي بدا لنا شخصية مقنعة ورائعة ، تعيش في أشراقات دائمة يبثها الوجود حقيقة في اعماقه ، فيفجر احاسيسه وتاملاته وذكرياته . ومن هنا ، فانني اعتقد أن الرواية لم تفقد اهميتها الفنية ـ على الاقل ـ ، لان شخصية أنيس العصابية وحدها تستقطب اهتمامنا فعلا ، وناجحة ، منذ أول حرف سطره نجيب محفوظ لابعادها ، وقد استطاع أن يدرك ازماتها خلال البنية الدرامية في الكيان النصي للرواية دراسة دقيقة، موحية، عميقة ، تنبض بالالم .. والماساة . أقول ـ عصابيا ـ لانه يمكن أن يصيب المرء الموت ـ كما يصيب كل من يعيش على هذه الارض ـ من اجل ما يصبو اليه دون أن يمنعه ذلك من تجربة الحياة والسعي فيها نحو الفلسفة وتاكيد الذات ، أو أن يتزوج انسان ، ثم تموت عنه زوجته، فلا ينهار كما انهار أنيس بل يصبر على الدهر والقدر ، ويحيا ب « المعنى » الذي تمليه علينا الحياة ، انه ـ أي أنيس ـ الشخصية الوحيدة المبررة ، اذا استثنينا عم عبده الذي يشبه الى حد بعيد شخصية « وات » كما أسلفت ، ولولاهما ، لكان عمل نجيب محفوظ عملا فاشلا حقا ، رغم أن الرواية أخذت اسما جامعا « ثرثرة فوق النيل » وهذا يعني أننا أمام أشخاص وليس امام شخص واحد يكاد لا يتكلم ، ولكن الرواية له ، ومنه . ان عصابية أنيس الحادة تتجلى من خلال رؤاه وصمته وحتى في افاقته و « النظرة الخاصة » التي منحها له رفاقه حين سموه ب « ولي الامر والنعم » تدل دلالة واضحة على موقفهم منه ، كذلك فان أية كلمة كانت تخرج من فمه ، كفيلة بان تجعل المكان يضج بالضحك ، حتى في « الجنس » حين يسال ليلى زيدان قائلا : « لم لا تتخذين مني رفيقا » فاجابت : « انك اذا استعملت الحب يوما كمبتدا في جملة مفيدة فستنسى حتما الخبر الى الابد » ، ومن هنا أدركت ليلى حقيقته ، وحين تقول سنية كامل محاولة ايجاد رجل لسناء بعد أن هجرها رجب : « واذا وقع المحذور فعندك مصطفى واحمد .. » صاح أنيس بوحشية « لماذا تغفلني احصاءات الاوغاد ؟ » ثم بغلظة وهو يضغط على مخارج الكلمات « أوغاد منحلون مدمنون ».. كل هذه الشتائم تكون نتيجتها أن اغرقوا بالضحك . ان أنيسا كانت تشغله مشكلة الموت شغلا حادا . وهذه الظواهر التي تدلنا على تفتحه للحياة كما رأينا سابقا في تعبيره « لماذا تغفلني احصاءات الاوغاد ؟ » لم تكن الا « صرعات » تتبدى بين حين واخر ، على اثر منبه ما يحس به ، لينتشله من « المذهلات » التي تسلب لبه وحسه وصوته ايضا ، سابحا في ذرات العدم والموت التي تكمن في الاشياء والناس والليل والضوء . لان أصل المتاعب مهارة قرد هبط من جنة القرود الى ارض الغابة ، وقالوا له عد الى الاشجار والا اطبقت عليك الوحوش .. فقبض على غصن شجرة بيد ـ عنصر الخصب ـ وعلى حجر بيد ـ عنصر الدفاع والقوة ـ وتقدم في حذر وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له ، هاربا من وحوش الموت والقلق والمجهول .. ولكن الى أين ؟ .. بهذا المعنى يختتم نجيب محفوظ روايته .

ان نهاية الرواية ظلت (تبحث) . والشخوص ما ونت تسير في طريق مجهول ، بعضهم ظل (معاندا) رغم « الجريمة » بل بدا من خلال « حدته المفرطة » أكثر جدية في عبثه . ونجيب محفوظ على لسانهم جميعا ظل بلا هدف بل يبحث عن هدف ، بلا خلاص ، بل يتشوف طريق خلاص في الطريق العجيب اللانهائي .

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

دريد يحيى الخواجة

صدر حديثا

ديوان شعر

ثائر وحب

للدكتور ابو القاسم سعد الله

دار الاداب